الفصل الأول

مرويات أولي الأمر والسيادة

من أقدم التنبيهات على الإحسان في بعض القصائد عند أولي الأمر والسيادة، ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الانباري قال: «أخبرنا موسى بن يحيى الكاتب قال: حدثنا عبد الله بن عمرو أن عمر بن الخطاب رضي الله سبحانه عنه كان يأمر برواية قصيدة لبيد:

إن تقوى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللهِ ريثي وَعَجَلْ»(1)

وتمام القصيدة(2):

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ له ... بِيَدَيْهِ الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ

مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى ... نَاعِمَ البالِ وَمَنْ شاء أَضَلْ

وَرِقاقٍ عُصَبٍ ظلمانُهُ ... كَحَزيقِ الحَبَشِيِّيْنَ الزُّجَلْ(3)

قد تجاوزت وتحتي جَسْرَةٌ ... حَرَجٌ في مِرْفَقَيْها كالفَتَلْ(4)

---

(1) أبو بكر الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال ص ٥١٦.

(2) لبيد بن ربيعة العامري: ديوانه تحقيق د. إحسان عبّاس ص١٧٤ـ١٩٨.

(3) الرقاق: الصحراء. والزُّجل: جمع زُجْلَة، وهي الجماعة من الناس، والظُّلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام، والحزيق: الجماعة من الناس والطير والنخل.

(4) الجسرة: الناقة الضخمةُ الطويلة، والحرج: المَعَدَّةُ من النوق، التي لا تُرْكَبُ ولا يضربها الفحل ليكون أسمن لها.

تَسْلُبُ الكانِسَ لم يُؤْأر بها ... شُعْبَةَ السَّاقِ إذا الظِّلُّ عَقَلْ[1]
وتَصُكُّ المَرْوَ لما هَجَّرَتْ ... بنَكِيْبٍ مَعِرٍ دامي الأَظَلْ[2]
وإذا حَرَّكْتُ غَرْزي أَجْمَرَتْ ... أو قَرَا بي عَدْوُ جَوْن قد أَبَلْ[3]
بالغُرابَاتِ فَزَرَّافاتها ... فبخنزيرٍ فأطْرافِ حُبَلْ[4]
يُسْئِدُ السَّيرَ عليها راكبٌ ... رابطُ الجَأْشِ على كُلِّ وَجَلْ[5]
حَالَفَ الفَرْقَدَ شِرْكاً في السُّرَى ... خَلَّةً باقيةً دون الخَلَلْ
اعْقِلي إن كنتِ لَمَّا تَعْقِلي ... ولقد أَفْلَحَ من كانَ عَقَلْ
إنْ تَرَيْ رَأْسيَ أَمْسَى واضحاً ... سُلِّطَ الشَّيْبُ عليه فاشْتَعَلْ
فلقدْ أُعْوِصُ بالخَصْمِ وقَدْ ... أَمْلأُ الجَفْنَةَ من شَحْمِ القُلَلْ[6]
ولقد تَحْمَدُ لَمَّا فارَقَتْ ... جارتي، والحَمْدُ من خَيْرِ خَوَلْ[7]
وغلامٍ أَرْسَلَتْهُ أُمُّهُ ... بأَلوكٍ فَبَذَلْنَا ما سَأَلْ[8]
أو نَهَتْهُ فَأَتاهُ رِزْقُهُ ... فاشْتَوَى ليلةَ ريحٍ واجْتَمَلْ[9]

---

(١) الكانس: الظبي في مستتره في الشجر. لم يوأر: لم يفزع، أو يشعر بها، والساق: ساق الشجرة؛ والشعبة: ما تفرق من أغصان الشجر. وعقل: اعتدل.

(٢) المرو: حجارة بيض براقة. والنكيب: الحافر، معر: ساقط، ناصل، والأظل من البعير: باطن المنسم.

(٣) الغرز للناقة: مثل الركاب للفرس، وأجمر: أسرع، والجون من الإبل: الأدهم. وقرا بي: خرج من أرض إلى أرض.

(٤) الغرابات: آكام سود، وزرافاتها: ما دنا إليها، وخنزير: جبل باليمامة، وحبل: موضع فيها.

(٥) يسئد: يغذ السير وأكثر ما يكون ذلك ليلاً.

(٦) أعوص: أركب الأمر العويص الشديد. والجفنة: القصعة.

(٧) الخول: العطية.

(٨) الألوك: الرسالة.

(٩) اجتمل: اتخذ الجميل وهو الشَّحْم المذاب.

مِنْ شواءٍ ليس مِنْ عارِضَةٍ   بِيَدَيْ كُلِّ هَضُومٍ ذي نَزَلْ[1]
فإذا جوزيتَ قَرْضاً فاجْزِهِ   إنَّما يَجْزى الفتى ليس الجَمَلْ
أعْمِلِ العيسَ على عِلاّتِها   إنَّما يُنْجِحُ أصحابُ العَمَلْ
وإذا رُمْتَ رحيلاً فارْتَحِلْ   واعص ما يأمُرُ تَوْصِيمُ الكسَلْ[2]
واكذبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها   إنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يزري بالأمَلْ
غير أن لا تَكْذِبَنْها في التُّقى   واخزُها بالبِرِّ لله الأجَلْ[3]
واضبطِ الليلَ إذا طال السُّرَى   وتَدَجَّى بَعْدَ فورٍ واعْتَدَلْ[4]
يَرْهَبُ العاجِزُ من لُجَّتِهِ   فَيُدَعِّي في مَبِيْتٍ ومَحَلْ
طال قَرْنُ الشَّمْسِ لما طَلَعَتْ   فإذا ما حَضَرَ الليل اضْمَحَلْ
وأخو القَفْرةِ ماضٍ هَمُّهُ   كلما شاءَ على الأين ارْتَحَلْ[5]
وَمَجُودٍ من صُبَاباتِ الكَرَى   عاطفِ النُّمْرُقِ صَدْقِ المُبْتَذَلْ[6]
قالَ هَجِّدْنا فقد طال السُّرَى   وَقَدَرْنا إنْ خَنَى دَهْرٍ غَفَلْ[7]
يَتَّقي الأرضَ بدَفٍّ شاسِفٍ   وضُلوعٍ تحت صُلْبٍ قد نَحَلْ[8]
فلما عرَّسَ حتى هجْتُهُ   بالتباشير من الصُّبْحِ الأوَلْ[9]

(١) العارضة: الناقة التي أصابها كسر أو أمر عارض فنحرت لذلك. والهضوم: الفتى الذي يقتطع من ماله، والنَّزَل: المعروف والخير.

(٢) التوصيم: الفترة والتكسير الذي ينتاب جسد الإنسان، والوصم: العار أيضاً.

(٣) اخزها: سُسْها واقهرها. من خزاه يخزوه إذا ساسه وقهره.

(٤) اضبط الليل: أي اضبط ما تحتاج إلى ضبطه بالليل واحذر أن تضل الطريق أو تند الإبل.

(٥) الأين: الإعياء.

(٦) المجود: الذي جاده النعاس وألح عليه فنام من كثرة ما صب عليه من الجود (المطر).. عاطف النمرق: يريد أنه ثنى وسادته (نمرقته) الصغيرة، وصدق المبتذل: قوي جلد.

(٧) هجدنا: أي دعنا ننام، وقدرنا: دنونا على مورد ماء. والخنى: الفساد.

(٨) الدَّف: الجنب، والشاسف: اليابس هزالاً وضمراً، والصلب: الظهر.

(٩) التعريس: النزول في آخر الليل، وهجته: أيقظته من النوم، وتباشير الصبح: أوائله.

يَلْمَسُ الأحــلاسَ في منــزلــه	بِيَدَيْهِ كالــيَهــوديِّ الـمُـصَــلْ(١)
يتـمــارى في الــذي قلت له	ولـقــد يَسْـمَــعُ قولي حَيَّهَــلْ(٢)
فوردنــا قَبْــلَ فُرَّاط الــقــطا	إن مِنْ وِرْدي تَغْـليسَ النَّهَــلْ(٣)
طامِــيَ الـعَــرْمَض لا عَهْــدَ له	بأنيس، بعــد حَوْل قد كَمَــلْ(٤)
فَهَــرَقْــنَــا لَهُــمَــا في داثِــرٍ	لضــواحــيه نَشِــيْشٌ بالــبَـلَلْ(٥)
راســخُ الــدِّمْـنِ على أَعْـضَــادِهِ	ثَلَمَــتْــهُ كُلُّ ريحٍ وَسَــبَــلْ(٦)
عافَتَــا الـمــاءَ فلمْ نُعْـطِنْهُمــا	إنّمــا يُعْــطِنُ مَنْ يرجــو العِلَلْ(٧)
ثُمَّ أَصْــدَرْنــاهُــمــا في وَارِدٍ	صادرٍ وَهْــمٍ صُواهُ قد مَثَــلْ(٨)
تَرْزُمُ االــشَّــارفُ من عِرفــانِــهِ	كلَّمــا لاَحَ بِنَجــدٍ واحْـتَفَــلْ(٩)

(١) يلمس: يطلب. والأحلاس: جمع حلس وهو الكساء الرقيق الذي يوضع تحت الرحل على ظهر البعير، واليهودي المصل: الكلام على التشبيه باليهودي الذي يسجد في صلاته على شق وجهه.

(٢) حيهل: أسرع.

(٣) فراط القطا: أوائل القطا، والقطا: طائر مشهور بالتبكير في السعي، وفراط: جمع فارط بمعنى السابق. والتغليس: السير بغلس، في ظلمة آخر الليل. والورد: العادة، والنهل: الشربة الأولى.

(٤) الطامي: العالي، والعرمض ما يعلو الماء من طحلب وخضره، وفي الكلام حذف تقديره: ماء طامي العرمض.

(٥) هرق الماء: صَبَّه، والداثر: الدراس، وهو وصف لمحذوف وهو الحوض، والنشيش: الجفاف.

(٦) الدمن: البعر والروث من آثار الماشية، ورسوخه: تلبده، وثلمته: كسرته، والسبل: المطر.

(٧) العَطَنُ: مبرك الإبل حول الحوض، وقصد بعدم عطنها أنه ماض إلى غايته لا يريد أن يخلد إلى الراحة.

(٨) الصادر الوارد: الطريق الذي يستخدم لورود الماء والصدور عنه، والوهم: الضخم الواسع، والصوى: حجارة توضع على الطريق علامات دالة عليه، والمثل: الماثل القائم.

(٩) ترزم: تصوت وتحن، والشارف: الناقة المسنة، والهاء في عرفانه عائدة إلى الطريق، واحتفل وضحت معالمه، وكثرت آثاره.

فَمَضينا فَقَضَينا ناجحاً ... مَوْطِناً يُسْأَلُ عَنْهُ ما فَعَلْ

ولقد يَعْلَمُ صَحْبي كُلُّهُمْ ... بِعِدَانِ السَّيْفِ صَبْري ونَقَلْ[1]

رابطَ الجأشِ على فَرْجِهِم ... أعطِفُ الجَوْنَ بمِرْبَوعٍ مِتَلْ[2]

ولقد أغدو وما يَعْدَمُني ... صاحِبٌ غيرُ طويلِ المُحْتَبَلْ[3]

ساهمُ الوجهِ شديدٌ أَسْرُهُ ... مَغْبَطُ الحارِكِ مَحْبُوكُ الكَفَلْ[4]

بأَجشِّ الصَوْتِ يَعْبُوبٍ إذا ... طَرَقَ الحيَّ من الغزوِ صَهَلْ[5]

يَطْرُدُ الزُّجَّ يُبَارِي ظِلَّهُ ... بأَسِيْلٍ كالسِّنانِ المُنْتَخَلْ[6]

وعلاهُ زَبَدُ المَحْضِ كما ... زَلَّ عن ظَهْرِهِ الصَّفا ماءُ الوَشَلْ[7]

وكأَنِّي مُلْجِمٌ سُوذَانِقاً ... أَجْدَلِيّاً، كَرُّهُ غَيْرُ وَكَلْ[8]

يُغْرِقُ الثَّعْلَبَ في شِرَّتِهِ ... صائِبُ الجِذْمَةِ في غَيْرِ فَشَلْ[9]

---

(١) عدان: مختلف في دلالته، فمن قائل عدان: موضع على سيف البحر، ومن قائل عَدان: النهر والنقل: مناقلة الحديث ومراجعته في صخب.

(٢) الفرج: موضع المخافة، والمربوع: الرمح المعتدل في طوله، والمتل: الشديد.

(٣) يصف فرسه أنه غير طويل الأرساغ، فالمحتبل موضع الحبل من رسغه.

(٤) ساهم الوجه: أي محمول على كريهة الجري، والحارك: الكاهل، الغبيط: قتب الهودج، أي كأن ظهره غبيط، ومحبوك الكفل: مدمج فيه استواء مع ارتفاع.

(٥) اليعبوب: الفرس الطويل السريع، أو الكثير الجري.

(٦) الزج: سنان الرمح، والأسيل: الطويل من الخدود المسترسل الأملس، والمنتخل: المنتقى.

(٧) المحض: اللبن الخالص، والوشل: الماء القليل يخرج من الصخر أو الجبل، ويقصد أن عرقه انساب على ظهره كما يزل الماء عن الصخرة الملساء.

(٨) السوذانق: الصقر أو الشاهين، والأجدلي نسبة إلى الأجدل وهو الصقر، والوكل: الضعيف العاجز.

(٩) الثعلب من القناة: ما دخل منها في السنان، وشرته: نشاطه وحدته، والمقصود أن الفرس من نشاطه يغرق ثعلب الرمح في الطريدة إذا طعنتها. والجذمة: السوط، وصائب الجذمة أي يعدو عند الضرب عدواً صائباً.

من نسا النَّاشط إذ ثَوَّرته ... أو رئيس الأَخْدَريات الأُوَلْ(١)

يَلْمُجُ البارضَ لَمْجاً في النَّدَى ... من مرابيعِ رياضٍ وَرِجَلْ(٢)

فهو شَحَّاجٌ مُدِلٌّ سَنِقٌ ... لاحقُ البَطْنِ إذا يعدو زَمَلْ(٣)

فتدليتُ عليه قافِلاً ... وعلى الأرض غَيَايَات الطَّفَلْ(٤)

وتَأَيَّيْتُ عليه ثانياً ... يَتَّقيني بتليلٍ ذي خُصَلْ(٥)

لم أَقِلْ إلا عليه أو على ... مَرْقَبٍ يَفْرَعُ أطرافَ الجَبَلْ(٦)

وَمَعي حامِيَةٌ من جَعْفَرٍ ... كُلَّ يومٍ تَبْتَلي ما في الخِلَلْ(٧)

وقَبيلٌ من عُقيلٍ صادِقٌ ... كليوثٍ بَيْنَ غابٍ وعَصَلْ(٨)

فمتى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صادق ... يُحْلِبُوهُ ذاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ(٩)

فَخْمَةً ذفراءَ تُرْتَى بالعُرى ... قُرْدُمانيّاً وتَرْكاً كالبَصَلْ(١٠)

---

(١) من نسا الناشط: متعلق بالفعل (يغرق) في البيت السابق، والناشط: الثور، والأخدريات أتن الوحش، يصف في هذا البيت وما يليه حمار الوحش.

(٢) التلمج: التلمظ والأكل، والبارض: أول ما تخرج الأرض من نبت قبل أن تتبين أجناسه. والرجل الأماكن السهلة التي ينصب فيها الماء فينبت فيها العشب الكثير.

(٣) الشحّاج: كثير التصويت. مدل: شجاع، سَنِقَ: أتخم، لاحق البطن: ضامر، والزمل ضرب من العدو سريع يعتمد فيه على أحد شقيه كأنه يعدو على رجل واحدة.

(٤) الغياية: ظل الشمس، والطفل: وقت غروب الشمس.

(٥) تأيبت: انصرفت بأناة وتؤدة. والهاء في عليه عائدة إلى الفرس، والتليل: العنق، والخصل من الشعر.

(٦) لم أَقِلْ: لم أقض القائلة وهو نصف النهار، والمرقب: المكان المرتفع يرقب منه.

(٧) الحامية: الرجل يحمي أصحابه أو الجماعة يحمون أنفسهم. وتبتلي: تختبر، والخلل: جفون السيوف وصف هذه الحامية بالتأهب والاستعداد لما يجد عليها من أمر.

(٨) العصل: جمع عصلة وهي شجرة تشبه الدفلى تأكلها الإبل وتشرب عليها الماء.

(٩) النقع: ارتفاع الأصوات، ويحلبوه: يعينوه، وذات الجرس والزجل: أراد الكتيبة.

(١٠) الفخمة: أراد الكتيبة، والذفراء المتغيرة الرائحة من الحديد. ترتى: تشد، والقردماني: الدرع، =

أحكمَ الجِنْثِيُّ مِنْ عَوْراتِها ... كلَّ حِرْباءٍ إذا أُكْرِهَ صَلْ[1]

كُلَّ يوم منعوا جامِلَهُمْ ... ومُرِنَّاتٍ كآرام تُبَلْ[2]

قدموا إذ قال: قَيْسٌ قَدِّموا ... واحفَظوا المَجْدَ بأطرافِ الأَسَلْ[3]

بَيْنَ إرقاصٍ وعَذْوٍ صادقٍ ... ثُمَّ إقدام إذا النِّكْسُ نَكَلْ[4]

فَصَلَقْنَا في مرادٍ صَلْقَةً ... وَصُداءٍ، أَلْحَقَتْهُمْ بالثَّلَلْ[5]

ليلةَ العُرقوبِ لمَّا غامَرَتْ ... جَعْفَرٌ تَدَّعي ورَهْطُ ابنِ شَكَلْ[6]

ثُمَّ أنْعَمْنا على سَيِّدِهم ... بَعْدَما أَطْلَعَ نَجْداً وأَبَلْ[7]

ومقامٍ ضيِّقٍ فَرَّجْتُهُ ... بمقامي ولساني وجدل

لو يقومُ الفيلُ أو فيَّالُهُ ... زلَّ عن مثلِ مَقامي وزَحَلْ[8]

ولدى النُّعمانِ مني موطنٌ ... بَيْنَ فاثورِ أُفاقٍ فالدَّحَلْ[9]

= والتَرْك: البيض وشبهها بالبصل في استدارتها وبياضها.

(١) الجنثي: الزرّاد، والعورات: الفتوق، والحرباء: المسمار في حلق الدرع إذا أكره ليدخل في الحلق سمع له صليل.

(٢) الجامل: الحي العظيم، والمرنة: الباكية إذا صوتت في نوحها، وتبل: اسم واد نسب إليه الآرام.

(٣) الأسل: الرماح.

(٤) الإرقاص: حمل الإبل على الخبب في السير، والنكس: الرجل الضعيف، ونكل: جبُن.

(٥) الصلق: الصياح، الثلل: الهلاك. وصداء: قبيلة من القبائل التي تجمعت في يوم فيف الريح مع مراد القبيلة الأخرى.

(٦) العرقوب: موضع من ديار خثعم، وشكل من بني الحريش.

(٧) سيدهم: هو الحصين بن يزيد الحارثي، وأَبَلْ: ذهب في الأرض.

(٨) زحل الشيء عن مقامة: زل عن مكانه. ويرى ابن قتيبة أن لبيداً أقام «أو» مقام الواو بمعنى مع فينتفي الخطأ الذي أخذ على لبيد في فهمه أن القوة في صاحب الفيل (انظر ابن قتيبة الشعر والشعراء ١/ ٢٨١).

(٩) فاثور أفاق فالدحل: موضعان.

إذا دَعَتْني عامرٌ أنصُرها فالْتَقى الألْسُنُ كالنَّبْلِ الدُّوَلْ(١)
فرميت القومَ رِشْقاً صائباً ليس بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعِلْ(٢)
رَقَمِيَّاتٍ عليها ناهِضٌ تُكْلِحُ الأرْوَقَ مِنْهم والأيَلْ(٣)
فانْتَضَلْنَا وابن سَلْمَى قاعِدٌ كعتيقِ الطَّيْرِ يُغْضِي وَيُجَلْ(٤)
والهبانقُ قيامٌ، مَعَهمْ كُلُّ مَحْجومٍ إذا صُبَّ هَمَلْ(٥)
تَحْسُرُ الديباجَ عن أذْرُعِهم عند ذي تاجٍ إذا قال فَعَلْ
فتولوا فاتراً مَشْيُهُمُ كراويا الطَّبْعِ هَمَّتْ بالوَحَلْ(٦)
فمتى أهلِكْ فلا أحْفِلُهُ بَجَلي الآن من العَيْشِ بَجَلْ(٧)
مِنْ حَياةٍ قد مَلَلْنَا طُولَها وجَديرٌ طُولُ عَيْشٍ أن يُمَلْ
وأرى أرْبَدَ قد فارَقَني ومِنَ الأرْزاءِ رُزْءٌ ذو جَلَلْ
مُمْقِرٌ مُرٌّ على أعْدائِه وعلى الأدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعَسَلْ(٨)

---

(١) النبل الدُّول: التي تتداول.

(٢) الرشق: رمي السهام كثيرة دفعة، والعصل: المعوجه، والمفتعل: الكذب، ويروى المقتعل وهو السهم الذي لم يبر برياً جيداً. أما المقثعل فلعله تصحيف عن المقتعل (انظر الديوان ص١٩٥).

(٣) الرقيمات: نبل منسوبة إلى الرقم وهو موضع قرب المدينة، وعليها ناهض: أي عليها ريش فرخ نسر حين نهض، والأروق: الطويل الأسنان، والأيل: قصير الأسنان، والكلح: التكشر في عبوس.

(٤) انتضل القوم: تفاخروا، والإشارة هنا إلى مقامته مع الربيع بين يدي النعمان بن المنذر، وابن سلمى: النعمان، وعتيق الطير: البازي والصقر، ويغضي ويجل: بمعنى يغضي جفونه مرة وينظر مرة أخرى، وجلّى عيونه من التكبر أو من الجلالة.

(٥) الهبانق: جمع هبنيق، وهو الوصيف، والمحجوم: الإبريق، وهمل: فاض.

(٦) الروايا: الإبل التي يحمل عليها الماء، والطبع: النهر.

(٧) بجلى: حسبي، أحفل: أبالي.

(٨) الممقر: المرّ من أمقر الشيء فهو ممقر إذا كان مرّاً.

في قُرومٍ سادَةٍ من قَوْمِـهِ نَظَرَ الـدَّهْـرُ إلـيهـم فابْـتَـهَـلْ
فأخـي إن شَربـوا من خَيْرهـم وأبـو الحَـزَّازِ من أهـلِ النَّفَـلْ[1]
يَدْعَـرُ الـبَـرْكَ فَقَـدْ أفْـزَعَـهُ ناهِضٌ يَنْهَضُ نَهْضَ المُخْتَـزَلْ[2]
مُدْمِـنٌ يَجْـلُو بأطـرافِ الـذُّرى دَنَسَ الأسْؤُقِ بالعَضْب الأفَـلْ[3]

* * *

والإحسان في قصيدة لبيد بن ربيعة ليس مركوزاً في اتجاهها التعبدي الصريح الدلالة على حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، من توحيده بالربوبية (فلا ند له)، والتسليم لمشيئته في أمور الإنسان كلها هداية أو ضلالاً، رشاداً أو انحرافاً، خيراً أو شرّاً، مما حمله مطلع القصيدة في أبياتها الثلاثة الأولى، بل تدرك شواهده في الفكر الإسلامي الذي جاء مبثوثاً في ثنايا القصيدة، فضلاً عن البنية الفنية التي حملت ذلك كله أداءً جمالياً في التذكير والوعظ.

والمدخل إلى جلاء الإحسان في ذلك كله هو محور الرؤية النفسية والفكرية في القصيدة، الذي نجده في هجرة الفلاح إلى الله، أو في رحلة لبيد إلى الإسلام، وقد انتظم هذه المحور القصيدة مطلعاً وعرضاً ومقطعاً.

ويبدو أن تأخر إسلام لبيد حتى عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة كان ثقلاً نفسياً مؤرقاً له، على الرغم من وقوع الإيمان في قلبه منذ أن أرسله عمه أبو براء (ملاعب الأسنة) برسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]، ولذلك كان الاعتذار عن ذلك بالتسليم لمشيئة الله، وافتتاح القصيدة بهذه المقدمة التعبدية الفريدة التي

---

(١) أبو الحزاز: كنية أربد أخي لبيد.

(٢) البرك: النوق الباركة على الأرض، نهض المختزل: نهوض غير مستو من أثر الشراب والسكر. والمختزل: المقطوع السنام.

(٣) الأسؤق: جمع ساق ما بين الركبة والكعب، ودنسها: الدم المسفوح على السنام يجلوه ويزيله.

(٤) انظر الخبر في الأغاني ١٥/٣٦٩ والاستيعاب ٢٣٥.

تجلو أصداء النفس في استجابتها للإسلام نفسياً وفكرياً، وفنياً بهذا المطلع المبكر في مغايرة المقدمات الجاهلية التقليدية.

إن تقـوى ربـنـا خير نفـل وبـإذن الله ريثـي وعـجـل
أحـمـد الله فلا ند له بيديه الـخـير ما شاء فعـل
من هداه سبل الخير اهتـدى ناعـم البـال ومن شاء أضـل

فتقوى الله والإيمان به والتسليم له خير غنيمة وهبة وعطية، غير أن الاستجابة لها والإقبال عليها إبطاءً وإسراعاً بمشيئة الله عز وجل؛ لأنه الهادي إلى الخير. ومع ذلك فلبيد حامد لله، شاكر لأنعمه وفضله على هدايته للإيمان.

وللبنية اللغوية في هذا المفتتح دلالة واضحة على إحساس الندم لدى لبيد بعد تذوقه حلاوة الإيمان بتأخر نفل الله عنه هذه المدة، فكان التضاد جامعاً للمعاني - الريث والعجل - اهتدى وضل، والإلحاح على أن الخير بيدي الله، [خير نفل، بيديه الخير، سبل الخير]، فضلاً عن تكرار إسناد المشيئة لله:

وبـإذن الله ريثـي وعـجـل
بيديه الـخـير ما شاء فعـل
ناعـم البـال ومن شاء أضـل

فالهجرة إلى الله والاهتداء إلى الإيمان رحلة يقصدها الإنسان بتوفيق الله ومشيئته، ولا يعني القول بالمشيئة وتكرار إسنادها إلى الله أن لبيداً يرمي إلى ما جاءت به مذاهب المتكلمين من الجبرية، يقول المرتضي: «ومما قيل إنه على مذاهب أهل الجبر من المشهورين أيضاً لبيد بن ربيعة، واستدل بقوله: (إن تقوى ربنا خير نفل... الأبيات)، وإن كان لا طريق إلى نسب الجبر إلى مذهب لبيد إلا هذان البيتان، فليس فيهما دلالة على ذلك، أما قوله:

وبإذن الله ريثي وعجل

فيحتمل أن يريد: بعلمه، كما يتأول قول الله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي بعلمه، وإن قيل في هذه الآية إنه أراد بتخليته وتمكينه وإن كان لا شاهد لذلك في اللغة أمكن مثله في قول لبيد، فأما قوله: «من هداه اهتدى، ومن شاء أضل» فيحتمل أن يكون مصروفاً إلى بعض الوجوه التي يتأول عليها الضلال والهدى المذكوران في القرآن، فما يليق بالعدل ولا يقتضي الإجبار»[1].

ولفكر هذه المقدمة اتصال بما جال خلاله لبيد من وصف الرحلة ووصف الناقة والفرس، وما عرّج عليه من كريم صفاته وطيب أخلاقه، والتي امتد طلقها حتى تجاوزت الخمسين بيتاً (من ٤-٥٦). وهذه الرحلة التي أطال في وصفها لعلها رحلته إلى الكوفة[2]، التي نزلها لبيد بعد أن خطها عمر، وأقام فيها إلى أن توفاه الله في خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة، فتكتسب هذه الرحلة عمقاً دينياً، إذ أنها إلى مناطق الثغور الشرقية للدولة الإسلامية، فهي رحلة جهاد وهجرة في سبيل الله بالمرابطة فيها.

وحرص لبيد في هذه الرحلة على الإبانة عن جوانب شخصيته التي هاجر بها إلى الكوفة أو دخل بها الإسلام، فمن خلال وصف الصحراء، وما فيها من اتساع وحرارة شديدة، قطعها على ناقة ضخمة طويلة، مفتولة المرفقين، سريعة، فإنه يقول مشيراً إلى بعض صفاته:

يُسْئِد السير عليها راكب ... رابط الجأش على كل وجل
حالف الفرقد شركاً في السرى ... خلة باقية دون الخلل

فرباطة الجأش واعتياد التبكير في السرّى مظهران في شخصيته يحرص عليهما

---

(١) المرتضي: أمالي المرتضي ١/٢١.

(٢) شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص٩٥.

اعـقـلي إن كنت لمـا تعقلي ولـقـد أفـلح من كان عقـل

خاصة أن الترغيب في التبكير جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «نجـاح أمتي في بكـورهـا» ولعـل إحساسه الحزين بتأخر إسلامه لم يفارق تنويهة بشخصيته إذ يقول:

إن ترى رأسي أمسى واضحـاً سلط الـشيب عليه فاشتعـل
فلقـد أعـوص بالخصم وقـد أمـلأ الجفنـة من شحم القلل

إذ أنه حريص على الإبانة عن قدرته على النفع والضرّ على الرغم من اشتعال رأسه بالشيب، فالقوة والكرم خلتان لم تتبدلا في جسمه ونفسه على الرغم من تطاول السنين وامتداد العمر، ولذلك فإن إحسانه إلى جيرانه لم ينقطع، مبادرة منه أو استجابة لطلب منهم:

ولـقـد تحـمـد لمـا فارقـت جارتي والحمـد من خير خول
وغـلام أرسـلتـه أمـه بألـوك فبـذلـنـا ما سأل
أو نهـتـه فأتـاه رزقـه فاشـتـوى ليلة ريح واجتمـل
من شواء ليس من عارضـةٍ بيدي كل هضـوم ذي نزل

ويشتـد انفعال لبيد بمكارم الخلق والقيم الرفيعة في المعاملة والسلوك، فإذا به ينعطف إلى مواعظ وحكم من خلال هذا الموقف تأتلف العمل والأمل:

فإذا جوزيت قرضـاً فأجـزه إنما يجزى الفتى ليس الجمل
أعْـمِـل العيس على علاّتهـا إنمـا ينجـح أصحـاب العمل
وإذا رُمـت رحـيلاً فارتـحـل واعص ما يأمـر توصيم الكسل
واكـذب الـنفس إذا حدثتهـا إن صدق النفس يزري بالأمل
غير أن لا تكـذبنهـا في التقى وأخـزهـا بالـبِّـر لله الأجـل

ومع أن هذه الحكم مسوقة بأسلوب بسيط في تركيبه، يجري على نمط في تعبيره من الطلب وعلته، غير أنها ذات مساس بالتصور الإسلامي في صدورها عنه والتزامها

به، فكأني بلبيد يقصد إلى «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»، «ومن قدم لكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فاشكروه» وذلك في قوله: «فإذا جوزيت قرضاً فاجزه» وفي دعوته إلى العمل والسعي تأثر بالأمر الإلهي بالسعي في مناكب الأرض ﴿فاسعوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

ولا يتنكر لبيد لطبيعة النفس في انطلاقها نحو الأحلام ورغبتها في الآمال باندفاع في الطلب مع إغفال ما يقف به الموت حائلاً دون تحقيق كثير منها، غير أن لبيداً مع توصيته بتنحية الموت وذكره وحيلولته دون الأماني فإنه يعمد إلى ضرورة الصدق في تذكير النفس بأن الأجل محدود وهو بيد الله. وهو بذلك إنما يوازن بين النفس وآمالها سعياً ونشاطاً ودأباً، وبين النفس والأجل استقامة وانضباطاً بالمنهج الموصل إلى الآخرة، وهو توازن يحقق للحياة استمراريتها وبهجتها وديمومتها، وللآخرة ثبات السعي نحوها، ودأب العمل في الفوز بالسعادة فيها.

ولما كانت الهجرة إلى الله جهاداً في سبيله تملك على لبيد نواحي نفسه فقد عاود الحديث عنها برؤية أخرى ذات دلالة على همته وعزمه وقوة تحمله وإعداده واستعداده، وساق ذلك من خلال حوار تبدو المفارقة فيه بينه وبين صاحبه الذي يميل إلى الراحة من طول السفر:

طال قَرْنُ الشَّمْسِ لما طَلَعَتْ ... فإذا ما حَضَرَ الليل اضْمَحَلْ
وأخو القَفْرةِ ماضٍ هَمُّهُ ... كلما شاءَ على الأين ارْتَحَلْ
وَمَجُود من صُبَاباتِ الكَرَى ... عاطفِ النُّمْرُقِ صَدْقِ المُبْتَذَلْ
قالَ هَجِّدْنا فقد طال السُّرَى ... وَقَدَرْنا إنْ خَنَى دَهْرٍ غَفَلْ
يَتَّقي الأرضَ بِدَفٍّ شاسِفٍ ... وضُلوعٍ تحت صُلْبٍ قد نَحَلْ
قلما عرَّسَ حتى هِجْتُهُ ... بالتباشير من الصُّبْحِ الأوَل
يَلْمَسُ الأحلاسَ في منزله ... بِيَدَيْهِ كاليَهوديِّ المُصَلْ
يتمارى في الذي قلت له ... ولقد يَسْمَعُ قولي حَيَّهَلْ

فوردنــا قَبْــلَ فُرَّاط الــقــطا إن مِنْ وِرْدِي تَغْـليسَ الـنَّـهَــلْ
فَمَـضـينــا فَقَـضَـينــا ناجـحــاً مَوْطِنــاً يُسْــأَلُ عَنْــهُ ما فَعَــلْ
ولــقــد يَعْـلَمُ صَحْـبـي كُلُّهُـمْ بِعــدَانِ السَّيْفِ صَبْــري ونَقَـلْ
رابِطَ الـجــأشِ على فَرْجِـهِـم أعـطِفُ الجَـوْنَ بِمِـرْبُـوعٍ مِتَـلْ

فالصبر وقوة المنطق ورباطة الجأش عدة من يسعى إلى النجاح والفلاح، ثم انعطف بعد ذلك إلى عدة معقود عليها الخير وهي الخيل، فأجرى وصفاً مادياً لفرسه، يدل على حسن اختياره له في طوله، واستواء خلقه، وارتفاعه، وسرعته، ونشاطه في العدو لإصابة الطريدة، بما يدلل على خبرته القتالية، وقدرته على الصراع:

ولـقــد أغــدو ومــا يَعْــدَمُـنـي صاحِـبٌ غيرُ طويلِ الـمُـحْتَبَــلْ
... يُغْــرِقُ الثَّعْلَبَ في شِرَّتِـهِ صائِبُ الجِـذْمَـةِ في غَيْرِ فَشَـلْ
من نســا الــنَّــاشط إذ ثُوِّرتــه أو رئــيس الأَخْــدَريات الأُوَلْ
يَلْمُـجُ البـارِضَ لَمْجاً في النَّدَى من مرابــيعِ رياضٍ وَرِجَــلْ
فهــو شَحَّــاجٌ مُدِلٌّ سَنِــقٌ لاحِقُ البَـطْنِ إذا يعــدو زَمَــلْ
فتــدلــيتُ عليه قافِــلاً وعلى الأرضِ غَيَايَاتُ الـطَّفَــلْ
وتَــأَيَّيْــتُ عليه ثانــياً يَتَّــقِـيني بتـليلٍ ذي خُصَــلْ
لم أَقِــلْ إلا عليه أو على مَرْقَبٍ يَفْــرَعُ أطـرافَ الجَبَــلْ

وإمعاناً من لبيد في إلقاء إضاءة على أصالة القدرة القتالية لديه، انتخب لقطات دالة من سجل الوقائع الحربية لقبيلة عُقَيل التي ينتمي إليها، وينتسب لها في التأهب الدائم؛ لقهر أعدائها، وحفاظها على مجدها:

وَمــعِــي حامِــيَةٌ من جَعْــفَــرٍ كُلَّ يومٍ تَبْـتَـلي ما في الـخِـلَلْ
وقــبــيلٌ من عُقَــيلٍ صادِقٌ كليوثٍ بَيْنَ غابٍ وعَــصَــلْ
فمــتــى يَنْــقَــعْ صُرَاخٌ صادق يُحْــلِبُــوُهُ ذاتَ جَرْسٍ وزَجَــلْ

فَخْمَـةٌ ذفـراءَ تُرْتَى بالعُـرى قُرْدَمَـانيّاً وتَـرْكَـاً كالـبَصَـلْ
فَصَـلَقْـنَـا في مرادٍ صِلْقَـةً وَصُـداءٍ، أَلْحَقَتْهُـمْ بالـثَّلَلْ
ليلةَ العُـرقـوبِ لمَّـا غامَـرَتْ جَعْفَـرٌ تَدَّعي ورَهْطُ ابن شَكَـلْ
ثُمَّ أَنْـعَـمْـنَـا على سَيِّدِهـم بَعْـدَمـا أَطْـلَعَ نَجْـدَاً وأَبَـلْ

ومما اختاره لبيد من تاريخه الجاهلي الطويل ليدلل على شخصيته ويحدد أبعادها النافعة؛ قوة حجته وقوامة منطقـه، خاصة فيما كان عند النعمان بن المنذر في قصته المشهورة مع الربيع بن زياد، إذ استطاع إن يظفر برضى النعمان وميله للعامريين دون العبسيين:

ومـقـامٍ ضيِّقٍ فَرَّجـتُـهُ بمقـامي ولِسـاني وجـدل
ولـدى النُّعـمـانِ مني موطنٌ بَيْنَ فاثـورِ أُفـاقٍ فالـدَّحَـلْ
إذا دَعَـتْـني عامِـرٌ أَنْصُـرهـا فالْتَقى الأَلْسُنُ كالنَّبْـلِ الـدُّوَلْ
فرميت الـقَـومَ رِشْقَـاً صائبـاً ليس بالـعُصْـلِ ولا بالمُقْتَعِـلْ
فتـولـوا فاتـراً مَشْـيُهُـمُ كراويا الـطَّبْـعِ هَمَّتْ بالـوَحَـلْ

بهذا السلوك الصائب الخيّر بأبعاده من الصبر والشجاعة والإحسان إلى الجيران وإكرامهم وقوة الحجة والمنطق، جاء رضى لبيد عنه واطمئنانه إليه، إذ أنه مما يوافق الإسلام، «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» فقال:

فمـتـى أهـلِكْ فلا أحْـفِـلُهُ بَجَلي الآن من العَيْشِ بَجَـلْ
مِنْ حَياةٍ قد مَلِلْنَـا طُولَـهـا وجَـدِيْرٌ طُوْلُ عَيْشٍ أنْ يُمَـلْ

وبالقدرِ الذي بدت سعادة لبيد ورضاه عن حياته الماضية في الجاهلية التي ينتفع بهـا في الإسـلام وينفع بها أيضاً، كان حزنه على أخيه أربد؛ لأنه كان مالكاً لهذه «خلة باقية دون الخلل» وأضفى على هذا الجانب من شخصيته طابعاً إسلامياً حين عدّ ذلك من الفلاح:

الصفات التي كانت تؤهله أن يكون رضيّاً مرضياً بها في الإسلام، لكنه مات كافراً[1]:

وأرى أَرْبَدَ قد فَارَقَنِي ... ومِنَ الأَرْزاءِ رُزْءٌ ذو جَلَلْ
مُمْقِرٌ مُرٌّ على أَعْدائِهِ ... وعلى الأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعَسَلْ
في قُرومٍ سادَةٍ من قَوْمِهِ ... نَظَرَ الدَّهْرُ إليهم فابْتَهَلْ
فأَخي إن شَرِبوا من خَيْرِهم ... وأبو الحَزَّازِ من أَهل النَّفَلْ
يَدْعَرُ البَرْكَ فَقَدْ أَفْزَعَهُ ... ناهِضٌ يَنْهَضُ نَهْضَ المُخْتَزَلْ
مُدْمِنٌ يَجْلُو بأَطرافِ الذُّرى ... دَنَسَ الأَسْؤُقِ بالعَضْبِ الأَفَلْ

وإذا ربطنا بين مطلع القصيدة ومقطعها، وهما نقطتان متلازمتان في رؤية الشاعر الفكرية والنفسية، فإن لواذ لبيد في المطلع، بأن الهداية والرشاد والريث والعجل كله بإذن الله ومشيئته، ذو ارتباط بهذا التعزي عن وفاة أربد كافراً، وانقطاعه عنه انقطاعاً نهائياً في الدنيا والآخرة، وذلك رزء جلل من الأرزاء التي أُصيب بها لبيد ولا شك.

وبذلك فقد جمع لبيد في قصيدته مفارقة بين المطلع والمقطع، وممازجة بين العرض والمقطع، عملت المفارقة على بلورة الحزن، في حين جسدت الممازجة هذه العاطفة الحزينة.

وأصاب لبيد الإحسان إذ أصل لشخصيّته الإسلامية بقيم وجدت امتداداً لها منذ الجاهلية، وهو بذلك فقيه بالخيرية التي تجمع بين الجاهلية والإسلام في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

ولم يتجاوز لبيد في هذا التأصيل، الذي وجد رعاية في الإسلام، جوانب الصدق الخلقي أو الواقعي، فقد كان «فارساً شجاعاً، وكان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق»[2]، وكان كريماً سخياً «آلى في الجاهلية ألا تهب

(١) وفد لبيد في وفد بني كلاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أخيه أربد فأسلم وهاجر وحسن إسلامه (الأغاني ١٥/٣٦٢).

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/١٣٥.

الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن، وألزمه نفسه في إسلامه»[1].

وبهذه الأبعاد الخلقية في المعاني والصفات، وهذا الإتقان والإحكام في بناء القصيدة مطلعاً وعرضاً ومقطعاً، والإيقاع المتميز بالقافية المقيدة، والتدفق في خفة موسيقى بحر الرمل في طلاقة وانطلاق بسعة نفس؛ كانت هذه القصيدة من أجود قصائد لبيد[2].

ولهذه القيم الجمالية التي أدركناها في الشكل والمضمون، أو لغيرها مما لم نوفق إلى بيانه؛ كانت وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذه القصيدة، واحتفاله برعايتها في ناشئة المسلمين وجماعتهم.

* * *

وإذا كان شعر لبيد نال الإعجاب بما ذكره أبو عمرو بن العلاء «ما أحد أحب إلي شعراً من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل، ولإسلامه، ولذكره الدين والخير»[3] فإن قصائد جاهلية أخرى نالت رعاية أهل الأمر والسلطان، إذ تألقت فيها الفطرة الجاهلية بقيم خلقية وحقائق كونية، فضلاً عن احتفالها بعناصر التوصيل الجمالية، ومن هذه القصائد قصيدة ذي الإصبع العَدواني، التي طلب عبد الملك بن مروان أن ينشدها له رجل من قومه، وكان قد تقدم رجلان من جديلة للتعريف بقومهما، فاعتذر الأول لأنه ليس يرويها وأنشده الثاني[4]:

وليس المرء في شيء من الإبرام والنَّقضِ
إذا أبرمَ أمراً خا له يقضي وما يقضي

---

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٢٧٦.

(٢) انظر د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص ٩٥.

(٣) المرزباني: الموشح ص ١٠٠.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣/ ٩١-٩٢.

يقـول الـيوم أمـضـيه ولا يمـلك ما يمـضـي
عذير الـحـيّ من عَدوا نَ كانـوا حَيَّةَ الأرضِ
بغـى بعـضـهـم بعـضـاً فلم يبـقـوا على بَعْضِ
فقـد صاروا أحـاديث برفـعِ الـقـولِ والـخَفْضِ
ومـنـهـم كانتِ الـسـادا تُ والـمـوفـونَ بالقـرضِ
ومـنـهـم من يُجيرُ الـنـا سَ بالـسُّـنَّـةِ والـفَـرْضِ
وهـم من ولـدوا أشـبـوا بسـرّ الـحسـب الـمحضِ
ومـمـن ولـدوا عامـ ـرَ ذي الـطول والعـرضِ
وهـم بوّوا ثقـيفـاً دا ر لا ذُلٌّ ولا خفضِ

وتمام قصيدة ذي الإصبع العَدواني[1]:

وأَمْـرَ الـيوم أَصْـلِحْـهُ ولا تَعْـرض لمـا يمـضـي
فبـينـا الـمـرءُ في عَيْشٍ لَهُ من عيْشَـةٍ خَفْضِ
أتـاهُ طَبَـقٌ يومـاً على مَزْلَـقَـةٍ دحَضِ[2]
وَهُـمْ كانـوا فلا تُكْـذَبْ ذوي الـقـوّةِ الـنَّـهضِ
وَهُـمْ إن ولـدوا أَشْـبَـوْا بِسـرِّ الـحَسَبِ المَحْضِ[3]
لَهُـمْ كانـت أعـالـي الأر ضِ فالـسـرَّانِ فالـعِـرْضِ
إلـى ما حازه الـحَـزْنُ فمـا أسـهـلَ للحَـمْضِ
إلـى الـكَـفْـرَيْنِ من نخـلـ ـة فالـدَّاءةِ فالـمَـرضِ
لهـم كانَ جمـام الـمـا ءِ لا الـمُـزْجَـى ولا الـبَـرْضِ
فكـان الـنـاسُ إذ هَمّـوا بِيُسْـرٍ خاشـعٍ مُفْـضِـي

---

(١) الأغاني ٣/ ١٠٧-١٠٨.

(٢) الطبق: الشِّدَّة، والمزلقة: أصلها الصخرة الملساء يزل عنها المرتقي لها.

(٣) هذا البيت هو البيت التاسع عينه.

تنـادوا ثم ساروا بـ ـرَئيسٍ لهـم مُرْضـي
فَمَـنْ ساجَـلهـم حربـاً ففي الـخيبـةِ والـخفضِ
وهـم نالـوا على الـشَّنـآ نِ والـشَّحْنـاءِ والبُغْضِ
معـالـي لم يَنَلْهـا النـا سُ في بَسْطٍ ولا قَبْضِ

وكان عطاء الرجل الأول ألفين وعطاء الرجل الثاني خمسمائة، فأقبل عبد الملك على كاتبه وقال: اجعل الألفين لهذا، والخمسمائة لهذا[1].

والقصيدة كما قال أبو عمرو بن العلاء يرثي بها ذو الاصبع العدواني قومه، الذين أفضى بهم الزمان من قوة إلى ضعف وشتات أمر؛ لأنهم ظلموا بعضهم بعضاً:

بغـى بعـضـهـم بعـضـاً فلم يبـقـوا على بعض

فقـد غدوا أحـاديث النـاس بعد أن كانوا أولي قوة (كانوا حية الأرض)، وفيهم السيادة والقضـاة، يستجير بهم الناس لتميزهم في العدد والعدّة، دانت لهم أعالي الأرض في مواضع السران والعرص والحمض والكفرين والداءة وما يتبع ذلك من أمواه جمومة غزيرة.

وبث ذو الاصبع العدواني من تجربة قومه إشارات دالة على نظرات صائبة في أن الإنسان مهما يؤتى من قوة ويظن أنه مالك للأمور فليس له من الأمر شيء:

ولـيس الـمـرء في شيء من الإبـرام والـنـقض
إذا أبـرم أمـراً خا له يقـضـي ولا يقـضـى
يقـول الـيوم أمـضـيه ولا يمـلك ما يمـضـي

ولذلك على الإنسان أن يصلح من شأن حاضره ولا يلتفت إلى ماضيه، وليأخذ حذره من مستقبله الذي تكون فيه المزالق الشديدة:

---

(١) انظر الأغاني ٣/٩٣.

وأمـر الـيوم أصـلحـه ولا تعـرض لمـا يمـضي
فبـينـا الـمـرء في عيش له من عيشـةٍ خفض
أتـاه طبـق يومـاً على مزلـقـة دحض

وسـواء أكان مقصود عبد الملك بن مروان وعظ نفسه بأحوال قوم ذي الاصبع العـدواني، أو وعظ غيره من أحياء العـرب بعـد قتله مصعب بن الزبير ومقدمه إلى الكوفة، بمعنى أن الغاية من الرواية سواء أكانت خلقية أو سياسيّة، فإن في قصيدة ذي الاصبع توهجاً نفسياً في الوعظ على الرغم من تقريرية العرض، وسهولة الأسلوب في الميل إلى السرد والتفصيل، والاقتصاد في الصورة والخيال، وبساطة موسيقى بحر الهزج وخفته، حيث أفرغ حزناً على كل حال أصابت قومه أو تبدلت بهم، بتتبع مآثرهم وأماكن انتشارهم وسيطرتهم، وذلك بالترديد والتكرير لضمير الجماعة الدال عليهم (منهم، وهم، لهم) تقريراً له في النفوس، وتثبيتاً لهم في القلوب.

* * *

ومن مرويات أولي الأمـر والسيادة في الإحسـان[1] قصيدة الأسـود بن يعفـر النهشلي[2] التي مطلعها:

نَامَ الـخَـلِيُّ ومـا أُحِسُّ رُقَـادِي والـهـمُّ مُحْـتَضِـرٌ لَدَيَّ وِسـادِي

فقـد أخـرج أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن أبي عبيدة عن الحكم بن موسى السلولي قال: «بينما نحن بالرافقة على باب الرشيد وقوف، وما أفقد أحداً من وجوه العـرب من أهل الشام والجزيرة والعراق، إذ خرج وصيف كأنه ذرّة فقال: يا معشر

(١) انظر قصيدة عدي بن زيد (أيها الشامت المعير بالدهر. . .) التي رواها خالد بن صفوان في وعظ هشام بن عبد الملك ص ٧٩.

(٢) الأسود بن يعفر: شاعر جاهلي فحل، وهو أحد العشي، كان ينادم النعمان بن المنذر، ولما أسن كفَّ بصره، كان يكثر التنقل في قبائل العرب ويقول الشعر، فيذم ويحمد. (انظر طبقات فحول الشعراء ١/١٤٧).

الصحابة إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: من كان منكم يروي قصيدة الأسود بن يعفر (نام الخلي. . .) فليدخل فلينشدها أمير المؤمنين وله عشرة آلاف درهم، فنظر بعضنا إلى بعض، ولم يكن فينا أحد يرويها، قال: فكأنما سقطت والله البدرة عن قربوسي، قال الحكم: فأمرني أبي فرويت شعر الأسود بن يعفر من أجل هذا الحديث»[1].

«وتقدم رجل من أهل البصرة من بني دارم إلى سوار بن عبد الله القاضي ليقيم عنده شهادة، فصادفه يتمثل قول الأسود بن يعفر:

ولقد علمت لو أن علمي نافعي أن السبيل سبيل ذي الأعواد

. . . الأبيات

ثم أقبل على الدارمي فقال له: أتروي هذا الشعر؟ قال: لا، قال: فتعرف من يقوله؟ قال: لا، قال: رجل من قومك له هذه النباهة، وقد قال مثل هذه الحكمة لا ترويها ولا تعرفه! يا مزاحم أثبت شهادته عندك، فإني متوقف عن قبوله حتى أسأل عنه، فإني أظنه ضعيفاً»[2].

وقصيدة الأسود بن يعفر النهشلي تحكي رحلة الحياة والفناء، وتعظ الحي بالميت، وذلك من خلال شريط من الحال الحاضرة والذكريات الماضية، اكتملت بهما دورة الحياة التي عاشها الشاعر شباباً وهرماً، وفتوة وضعفاً، وطرباً وهماً.

وعلى الرغم من أن الإحساس بالرضى كان شاملاً لدورة حياة الأسود بن يعفر بأحوالها المختلفة، إلا أنه قدمه بالتنازع بين ذاته (نفسه) وغيره (زوجته) التي ترى في حركة الحياة ودورتها رأياً آخر من الإقبال عليها والتمتع بها، إذ أنه السبيل إلى الغاية:

نام الخَلِيُّ وما أُحِسُّ رُقَادي والهمُّ محتضرٌ لَدَيَّ وِسادِي

---

(١) الأنباري: شرح المفضليات ٤٤٥-٤٤٦ والأغاني ١٣/ ١٧-١٨.

(٢) الأغاني ١٣/١٦.

من غير ما سَقَمٍ ولكنْ شَفَّني ... همٌّ أراهُ قد أصاب فؤادي
ومن الحوادثِ، لا أبالكِ، أنني ... ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأسْدادِ(١)
لا أهتدي فيها لِمَوْضِعِ تَلعةٍ ... بين العراقِ وبَيْنَ أرضِ مُرادِ(٢)
ولقد عَلِمتُ سوى الذي نَبَّأتني ... أنَّ السَّبيلَ سَبيلَ ذي الأعوادِ(٣)
إن المنيةَ والحُتُوفَ كلاهما ... يُوفي المخارمَ يَرْقُبانِ سَوادي(٤)
لن يَرْضَيَا مني وفاءَ رَهِيْنَةٍ ... من دون نفسي، طارفي وتلادي

فالموت في رؤية الشاعر وإن لم يكن رحلة إلى عالم مطلوب فإنه تحول إلى حق لازم، لا يفتدى من قضائه بمال، ولا يرد طروقه بمساومة أو فداء؛ لأن النفس رهينة أو وديعة يرقب الموت استردادها. ويستوي في ذلك الثري والقوي، فلا الثري بنجوة منه بماله، ولا القوي ببعيد عنه بحسن عتاده، ويتعزى الأسود بن يعفر في ذلك بآل محرق وقبيلة إياد نموذجاً للثراء ووفرة المال، وبآل غرف مثالاً لشدة القوة وحسن الظهور، فلم يغن ذلك عن قدرهما المحتوم بالموت، ولم يدفع عن مآلهم إليه شيئاً:

ماذا أؤمل بعد آل مُحَرِّق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضاً تخيرها لدار أبيهم ... كعب بن مامة وابن أُمّ دُؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأَنْقُرَةٍ يسيل عليهم ... ماءُ الفُرات يجيءُ من أَطْوَادِ

---

(١) الأسداد: جمع سد، يريد أنه سدت عليه الأرض لضعفه وكبر سنه.

(٢) التلعة: ما ارتفع من الأرض، ومسيل الماء، ومراد: قبيلة في اليمن.

(٣) ذو الأعواد: الموت، إذ يحمل الميت على أعواد تضم إلى بعضها بعضاً.

(٤) يوفي المخارم: يعلو المخارم، وهي منقطع أنف الجبل، وسوادي: شخصي.

(٥) الخورنق والسدير: قصران بالحيرة، وبارق: ماء بالعراق، وسنداد: نهر بين الحيرة والبصرة.

فإذا النعيمُ وكل ما يُلْهَى به ... يوماً يصيرُ إلى بِلىً ونفادِ
في آلِ غَرْفٍ لو بغيتِ لي الأسى ... لوجدتِ فيهم أُسوةُ العُدَّادِ
ما بَعْدَ زيدٍ في فتاةٍ فُرِّقوا ... قَتْلاً ونَفْياً بَعْدَ حُسْنِ تآدي
فتخيروا الأرضَ الفضاءَ لِعِزِّهم ... ويزيدُ رافِدُهم على الرُّفادِ

وهذه الرؤية للموت والفناء تستقي صدقها وفاعلية دلالتها من موضوعية التجربة العامة التي غدت تاريخاً مضى وانقضى، فوهبه الشاعر جدّة وحيوية وحضوراً في الاستعانة به في إثارة المخاطبة؛ للإحساس بالواقع وإحداث التمييز الواعي بالإدراك للتصديق والتسليم.

غير أن أسلوب هذين المثالين متباين استفهاماً وشرطاً، إفاضة واختصاراً، إطناباً وإيجازاً، إذ ساق حكاية آل محرق مع البناء والهدم بالاستفهام المستنكر «ماذا أُؤمل بعد آل محرق. . . وبعد إياد» متحزناً متحسراً في وعظ نفسه بالثبات على العزم بأن الموت حق، وأنه إذا باد هؤلاء فهو في أثرهم لا محالة صائر.

وقص خبر آل غرف مثلاً سريعاً بأسلوب الشرط والاستفهام القاصد إلى الإنكار ونفي تسويف المخاطبة في رؤية الموت، فهي عازفة عن التماس الأسى والأمثال (لو بغيت لي الأسى)، غير راغبة في إيجاد القدوة التي يتعظ بها من الأسلاف الشريفة المعدودة (لوجدت فيهم أُسوة العُدَّاد). فأي غاية بعدهم من العبر ترتجى (ما بعد زيد)؟! يقول لها ذلك متعجباً منكراً[1]، خاصة أنهم فرقوا قتلاً ونفياً بعد تمكنهم وأخذهم آلات العز وأسبابه، واستظهارهم على الزمان بما يقوي المنة[2].

وعلى الرغم من هذا التباين في أسلوب العرض إنشاءً وخبراً، فإن فيهما ارتباطاً جلياً في بلورة الحزن، الطاقة الدافعة في القصيدة من جهة، وتأكيد الإحساس بالرضى العامل المحرك الآخر في مصاحبة الحزن في وجود القصيدة.

(١) التبريزي: شرح المفضليات ٢/٧٩٦.
(٢) المصدر نفسه ٢/٧٩٧.

ولتباين أسلوب العرض إيجازاً وإطناباً أسباب ندركها في محاكاة واقع النموذجين مكاناً وزماناً، ثباتاً وفناءً، إذ يشي الإطناب في الاستدلال بآل محرق وإياد بالإزدهار الحضاري:

أهـــل الخـورنق والسـدير وبـارق والقصـر ذي الشـرفات من سنداد

وثبات ملكهم واستقراره:

ولقـــد غنـــوا فيهـــا بأنعم عيشـــة في ظل ملك ثابـــت الأركـــان

واتساع دولتهم وانتشارها:

نزلـــوا بأنـــقـــرة يســـيل عليهـــم ماءُ الـفـــرات يجـيء من أطـــواد

ويشير الإيجاز في حكاية آل غرف إلى لون آخر من البناء، حيث قام شأنهم، وشاع ذكرهم بالقوة (بعد حسن تآدي)، وهو بناء يحقق عزّاً ورفداً لكنه يظل أقل شأناً من بناء آل محرق وإياد.

ومهما يكن شأن هذا التباين في ظهور البناء وخفائه؛ فإن الأسود بن يعفر وَحّد بين عوامل الفناء في سرعة الانقضاض، سواء أكان فعلها نتاج قوى كونية من غير ما سبب (جرت الرياح) أو قوى بشرية تصطنع الأسباب (في فتاة فرقوا قتلاً ونفياً)؛ لأن لهذه وتلك ميعاداً (فكأنما كانوا على ميعاد)، ويوماً محدداً يصير النعيم وما يلهى به (إلى بلى ونفاد).

وكأني بالشاعر وهو يعظ نفسه ينصح لغيره من الناس بأمرين لا بدّ أن يظلا في الحسبان؛ أولهما: القدر الذي جاء الرمز إليه بالرياح وثانيهما: الفتن أو الشر الذي رمز إليه بالفتاة.

وانطلاقاً من هذه التجربة الموضوعية للأمم أو حضارة الأقوام السابقة، انعطف الأسود بن يعفر إلى تجربته الذاتية في الحياة، ليمتزج العام بالخاص، فتكون إثارة الإحساس بواقع الحياة آكد، وتصوير التعاقب بين الخير والشر أدل وأصدق؛ ولذلك

أطلق الشاعر لشريط من ذكرياته العنان للتطواف على مظاهر الفتوة والصبوة والقوة، وهو لا ينسى أن يسوق ذلك من خلال المحاورة، فعن الخمر وساقيها يقول:

إما تَرَيْني قد بَليتُ وغاضني ... ما نيل من بصري ومن أَجْلادي
وَعَصَيْتُ أصحابَ الصَّبابة والصِّبا ... وأطعت عاذلتي ولان قيادي
فلقد أروحُ على التِّجارِ مُرَجَّلاً ... مَذِلاً بمالي لِيِّناً أجيادي[1]
ولقد لهوت وللشباب لذادةٌ ... بِسُلافَةٍ مُزِجَت بماءِ غوادي[2]
من خَمْرِ ذي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ ... وافي بها لدَراهِمِ الإسجادِ[3]
يسعى بها ذو تُومَتَيْنِ مُشَمِّرٌ ... قَنَأَتْ أنامِلُهُ منَ الفِرْصادِ[4]

ثم وصف مجلس الخمر بأنه اختلط بهم نساء كالبدور جمالاً، وكبيض النعام بياضاً، ينطقن بما لا رفث فيه ولا فحش، وفيهن لين ودماثة ورقة:

والبيضُ تمشي كالبدور وكالدُّمى ... ونواعِمٌ يمشين بالأَرفادِ[5]
والبيضَ يرمين القلوبَ كأنَّها ... أُدْحِيُّ بين صَرِيمةٍ وَجَمادِ[6]
يَنْطِقْنَ مَعْروفاً وهنَّ نواعِمٌ ... بيضُ الوجوهِ رقيقةِ الأكبادِ
ينطقنَ مخفوضَ الحديثِ تهامساً ... فَبَلَغْنَ ما حاولنَ غيْرَ تنادي

(١) أصل المذل: القلق، أي أقلق بمالي حتى أُنفقه، ولِيناً أجيادي: لم أكبر فأنا شاب.
(٢) السلافة: خالص الشراب وأوله، وماء غوادي: ماء سحابة مطرت غدواً.
(٣) النطف: جمع نَطَفة وهي القرط، الأغنّ: في صوته غُنَّة، ومنطق: في وسطه منطقه أو عليه نطاق. دارهم الإسجاد: دارهم الأكاسرة التي كانوا يسجدون خضوعاً إذا ما رأوا صورتهم المرسومة. ومعنى البيت: أن بائع الخمر من العجم جاء بخمره ليبيعها بدراهم الأكاسرة.
(٤) التومتان: لؤلؤتان، وقنأت: احمرّت أو اسودت بلون التوت (الفرصاد).
(٥) الأرفاد: جمع رفد، وهي العطايا، وإنما جعلهن كذلك إذ كن يحملن خلع الندامى فيلقينها عليهم.
(٦) الأدحي: الموضع تدحوه النعامة لتبيض فيه، وإنما قصد تشبيه النساء ببيض النعام، والصريمة القطعة من الرمل، وأراد أدحياً متوسطاً للرمل والجماد، والقصد إلى تبعيده من مواضع الأُنس.

وأبان عن منعته وقوته وعزه بوصف للمرعى الذي يقصده فيرعاه آمناً غير خائف ولا منقبض، في حين يتناذره الناس للخوف منه:

ولقد غَدوتُ لعازبٍ متناذرٍ أَحْوَى المذانبِ مُؤْنِقِ الرُّوَّادِ[1]
جادت سواريه وآزرَ نَبْتَهُ نُفَأٌ من الصَّفراءِ والزُّبَّادِ[2]
بالجوِّ فالأَمَراتِ حَوْلَ مُغامرٍ فَبِضارجٍ فَقَصِيمَةِ الطُّرادِ[3]
بِمُشَمِّرٍ عَتِدٍ جَهيزٍ شَدُّهُ قَيْدِ الأَوابدِ والرِّهانِ جوادِ[4]
يشوي لنا الوحَدَ المُدِلَّ بِحُضْرِهِ بِشَريجِ بَيْنَ الشَّدِّ والإيرادِ[5]

تم وصف ناقته، بعد أن وصف فرسه. مؤكداً قوته بقوتها، فهي شديدة على السير (جسرة) موثقة الخلق (أُجُد)، عاقر لا تلقح (مهاجرة السقاب) صلبة سريعة (عيرانة) سمينة ممتلئة، فلا يثبت عليها قراد أو يلزق بها:

ولقد تلوت الظاعنين بِجَسْرَةٍ أُجُدٍ مُهَاجِرةِ السِّقابِ جَمادِ
عَيْرانةٍ سَدَّ الرَّبيعُ خَصاصَها ما يَسْتَبِينُ بها مَقِيلُ قُرادِ

وأظهر ما يميز هذا الشريط المتلاحق من الذكريات التوازن بين الإيقاع الطرب والإحساس بالرضى. إذ نقل إلينا الشاعر طربه وسروره ترانيم موقعة النبرات، بالتنوين بأنواعه نغماً صوتياً (مرجلاً، مذلاً، ليناً، لذاذة، بسلامةٍ، نطفٍ، مُنطقٍ، مشمرٍ،

---

(١) العازب: المتنحي ويتحدث عن الكلأ، والأحوى الذي اشتدت خضرته، والمذانب جمع مذنب، مسيل الماء الصغير، والمؤنق: المعجب، والرواد: طلاب الرعي.

(٢) السواري: جمع سارية وهي السحابة تمطر ليلاً، آزر نبتهُ: اتصل عشبه، والنفأ: نبت له نورة بيضاء، والصفراء والزباد: ضربان من العشب أو النبات.

(٣) الجو وما بعدها: أسماء لمواضع.

(٤) المشمر: الفرس الطويل، والعتد: الذي عنده عدّه للجري، والأوابد: الوحش، والجهيز: الكثير السريع.

(٥) الوحد: الثور. الشريج: الخليط، أي يجري بين هذين الجريين؛ الشديد والضعيف.

نواعمٌ، صريمةٍ، تهامساً، لعازبٍ، متناذرٍ، مغامرٍ، فبضارجٍ، بمشمرٍ، عتدٍ، جهيزٍ، بجسرةٍ) وبحرف النون المردد في الكلمات «أغن، تومتين، يمشين، يرمين، ينطقن، فبلغن ما حاولن، الظاعنين، ما يستبين».

على أن حرف النون من حروف الأصوات؛ الرنين والأنين والحنين، وهو بعد ذلك من حروف الغنة، التي يقصد إليها العرب في الترنم والغناء، يقول سيبويه: «والعرب إذا أرادوا أن يترنموا يلحقون الألف، والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت».

ولـلإيقـاع المـطرب ظاهـرة صوتية أخـرى في الأبيات تبدو من خلال التقطيع الموسيقي الذي أعان عليه وأبانه تتابع الوصف بتتالي الصفات كقوله:

من خمـر ذي نطفٍ أغـنَّ منـطقٍ.

وقوله:

ولـقـد غدوت لعـازب متـنـاذر أحـوى الـمـذانـب، مؤنـق الـرواد
بمـشـمـرٍ عتـدٍ جهـيز شدّه قيد الأوابـد والـرِهـان جواد

وكذلك جسّد التصوير الفني الإحساس بالرضى في هذه الذكريات، إذ حرص الأسـود بن يعفـر على إظهار بعض صورها في معارض جمالية منوعة تلذذاً بآثارها السعيدة في نفسه، فبائع الخمر ذو غنة في صوته ومنطقة في وسطه، وهو ذو لؤلؤتين، أحمرت أنامله واصطبغت بلون الخمر.

وأمـا النساء (البيض) فهن (كالبدور) و(كالدمى) في المشية والخطو، ويرمين القلوب ويستولين عليها (كأنها أُدْحيُّ بين صريمة وجماد).

وانتهى الشاعر من عرض ذكرياته الممتعة وتجربته الذاتية الممتزجة بتجربة الأمم السابقة إلى مقطع القصيدة في قوله[1]:

---

(١) لم يرد هذا البيت في رواية المفضل الضبي، ولا في شرح الأنباري للمفضليات، ورواه كل من المرزوقي والتبريزي في شرحيهما.

فإذا وذلـك لا مهـاه لذكـره والـدهـر يعقب صالحـاً بفسـاد

مشيراً بذلك إلى ما اقتصه، وأنه لم يبق مما ذكره بقاء وثبات، وكذلك لا يبقى ذكره أيضاً.

ولكن هذا المقـطع الـذي جاء مؤتلفـاً مع ما اقتصـه، فيه مفـاجأة غير متوقعة لإحساس الرضى الذي شمل القصيدة، ولمقصد الحوار الذي أجراه بينه وبين زوجه أو نفسه، إذ المنتظر أن يكون المقطع (والدهر يعقب فاسداً بصلاح)، ولا يختل الوزن الشعري بهذا التقديم والتأخير، فهل لذلك علاقة برواية الشعر ورواته؟!

لعـل الشاعر يقصد بمعاقبة الفساد للصلاح إلى الدلالة الخلقية المقيدة بالخير والشـر، وإنمـا أطلقهـا لتشمـل التعـاقب بين الحياة والمـوت، البناء والهدم، القوة والضعف، النعمة والنقمة، السرور والحزن، قال التبريزي: «ومن شأن الدهر اتباع الصلاح بالفساد، والخير بالشر، والبقاء بالنفاذ»[1].

وبهذا الفهم يكون الشاعر قد أبدى ارتياحاً وطمأنينة أفرغ بهما حزنه من الهم الذي أبداه من مقدمة القصيدة، فعادل بذلك بين الإحساسين، وأكمل بهذا التعادل دورة القصيدة وحركتها.

وما دام تبدل الحال من لوازم الزمان، فقد وعظ الأسود بن يعفر نفسه وغيره بمصير الإنسـان في الحياة، وهي فكـرة بسيطة مطروقـة خاصة في التعزي بأحوال الأقوام السابقين من أهل الخورنق والسدير، غير أنه أبان من خلال قسوة الفناء عن إشراق الحياة بالبهاء والبهجة، وطواعية المتعة فيها لمن كان جديراً بها، قادراً عليها، وإن قيد ذلك بمآل تنتهي إليه، وتتوقف عنده.

وحاد الشاعر بهذا الوعظ عن المباشرة بالأمر والنهي طلباً وإرشاداً، وأقام المواقف الحـركية ذات الطابع القصصي نشاطاً تعبيرياً في التوجيه، جانب فيها الإطالة والسرد،

(١) شرح المفضليات للتبريزي ٢/٨٠٨.

بل تجنب فيها أن ينتهي بها إلى حكم تقريرية، فحررها مما يحدّ من فاعلية التأثير، أو يقلل من جاذبية الاستمالة، وعطف السامع بذلك إلى اليقين بأن الموت حق، والإيمان بأنه نهاية لا محيد عنها.

ولعلنا بما قدمنا أصبنا روعة القصيدة وجودتها التي أشار إليهما ابن سلام في قوله: «وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته... وله شعر كثير جيد ولا كهذه»[1].

(١) ابن سلام: طبقات فحلو الشعراء ١/١٤٧.